

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 372-381

تيات الأدب اللاجئ في رواية "قصر شمعايا" لعلّي الكردي -دراسة موضوعاتية-

Themes of Refugee Literature in Ali Al-Kurdi's Novel " qasr Shamaya" -A Thematic Study-

د. هناء داود

daoud.hana@univ-guelma.dz

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/11/12

تاريخ الاستلام: 2025/07/02

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن تيمات الأدب اللاجئ في رواية "قصر شمعايا"، وتحليل سماتها الموضوعية وما تتضمنه من قضايا؛ إذ تمثل نموذجاً من التنازع المعبرة بقوة عن هذا الأدب الذي يعكس الأوضاع التي يعيشها اللاجئون، ويصورها تصويراً دقيقاً ينقل الواقع من جميع جوانبه. ووقفنا على موضوعات مركزية تطرحها هذه الرواية تتمثل أساساً في: الاغتراب، وصراع الأنا والآخر، والهوية، والمأساة. كلمات مفتاحية: تيمات، الأدب اللاجئ، رواية، قصر شمعايا، علي الكردي.

Abstract:

This research aims to uncover the themes of refugee literature in the novel " qasr Shamaya " and analyse its thematic features and the issues it contains, as it represents one of the most expressive examples of this literature, which reflects the conditions in which refugees live and portrays them accurately, conveying reality in all its aspects.

We have identified the central themes of this novel, which are mainly represented in: Alienation, the conflict between the ego and the other, identity, and tragedy.

Keywords: Themes; refugee literature; novel; qasr Shamaya; Ali Alkurdi.

لم يثن الأديب يوماً عن التعبير عن قضايا الإنسان والواقع، بل كان مواكباً دائماً لها ومعبراً عنها وناقلاً لتطورات الحياة وظروفها، فكان ومازال المرآة العاكسة للواقع والإنسان، فمنذ القديم والأديب يعبر عن الحياة الإنسانية من مختلف جوانبها بأشكال مختلفة وأنماط تعبير متنوعة، فزاد يترجم كل ما يعيشه الإنسان في نصوص أدبية تزخر بالمعاني والدلالات بطريقة إبداعية لا تبتعد عن الواقع.

وتعدّ نصوص الأدب اللاجئ خير نموذج للأدب الواقعي الذي عكس فيه كثره حياة مجتمعات تعيش حالة من المعاناة؛ إذ شكّلت الظروف العسيرة التي تمرّ بها مختلف الشعوب الدافع الرئيس للأدباء ليكتبوا عنها وينقلوا مشاعرهم وأحاسيسهم فكانوا لسان حالها، لذلك نجد نصوص هذا الأدب تعبر بصدق عن مشاعر القلق والاعتراب والخوف التي سيطرت على اللاجئين وجعلتهم يعيشون وضعاً مأساوياً.

إنّ الأديب ابن هذه البيئة فهو يلحظ ما يعيشه أهلها وما يعاينه من ظروف قاسية، الأمر الذي جعله يكتب ويبدع نصوصاً تعكس هذه المعاناة وتصور هذه المأساة الإنسانية بالترجمة الأولى، وقد كتبت العديد من النصوص منذ أن بدأت الشعوب تضطهد وتضطلم وتستعمر لتكون وسيلة لإيصال صوتها وفضح الممارسات الظالمة التي تُرتكب في حقها، وتسجيل أحداثها ووقائعها، من هنا يمكننا القول إنّ هذا الأدب بمثابة الوثيقة التي تحفظ تاريخ الشعوب المضطهدة وتعبّر عن معاناتها، وجد فيها الأديب متنفساً ليخفّف عنه عبء الشعور بالقهر والعجز وهو يرى أهله وشعبه يعاني في صمت.

ولقد تنوعت النصوص المعبرة عن أوضاع اللاجئين بين الشعر بأنواعه المختلفة والتثر أيضاً فنجد من بين ذلك النصوص الشعرية التي تتحدث عن القضية الفلسطينية مثل ديوان "مع الغرباء" لـ "هارون هاشم رشيد" الذي يصوّر فيه الظروف القاسية التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون وحالتهم الاجتماعية المزرية، تُضاف إليها القصائد الشعرية التي تصوّر وضع اللاجئين السوريين، وكانت الرواية حاضرة أيضاً في هذا السياق منها روايات للكاتب السوري "محمود الجاسم" الموسومة بـ "الاجئة بين زوجين" ورواية "زوح مريم"، وصوّر فيها المأساة السورية وما يعيشه الشعب السوري من قهر وظلم، وروايات "خالد خليفة" التي عبّرت عن الموضوع نفسه منها رواية "لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة"، ونال موضوع اللاجئين اهتمام المسرحيين أيضاً ونذكر بعض المسرحيات في هذا الصدد "مسرحية اللاجئين" للأخوين ملّص التي تناولت واقع اللاجئين السوريين وحالات اللجوء، ومسرحية "الموت من أجل الحياة" للكاتب المسرحي "أسامة أبو عمرو" وغيرها من الأعمال التي سلّطت الضوء على واقع اللاجئين وصوّرت مأساتهم بأسلوب إبداعي يحمل مضامين وأبعاد مختلفة ومتعددة.

إنّ هذه الأعمال تثبت مدى اهتمام الأديب بواقعه وسعيه إلى تغييره بالكلمة التي يصل صداها إلى العالم محاولة منه إلى دعم القضية والتسعي إلى التعريف بالوضع المأساوي الذي تعيشه هذه الفئات المضطهدة، من هنا نقول إنّ هذا الأدب وُلد من رحم المعاناة ومن عمق المأساة، فهو ليس مجرد عمل إبداعي بل هو عمل إنساني يحمل مضامين إنسانية واقعية صادقة، لأنّه يعكس الواقع بكل صوره ومن جميع جوانبه.

من هذا المنطلق نطرح الإشكالية الآتية: فيم تجلّت تيمات الأدب اللاجئ في رواية قصر شمعيا؟

ولاكتشاف هذه المضامين والتميمات المركزية المطروحة بقوة في نصوص الأدب اللاجئ اخترنا رواية "قصر-شمعيا" للروائي السوري "علي الكردي" الصادرة عن دار كنعان سنة 2010 والتي تعبر عن اللاجئين وأوضاعهم، وقبل تحليلها نتعرّف على معنى الأدب اللاجئ للوقوف على المصطلح ومدلولاته وسنّاته، ومن ثمّ نعرّف بصاحب

المدونة، ومضمونها، وللإجابة على الإشكالية المطروحة، وتحقيق الأهداف المنشودة اعتمدنا على المنهج الموضوعاتي لأنه الأنسب للدراسة، وهو المنهج الذي تتداخل فيه مختلف المناهج النقدية (الظواهرية، الوجودية، التأويلية...) التي تتضافر فيما بينها لتلتقط الموضوعات المهيمنة على التصوص على حدّ تعبير الناقد "يوسف وغليسي" في كتابه (مناهج النقد الأدبي)، ومن أبرز رواد المنهج الموضوعاتي نذكر: جون بول ويبر (Jean Poul Weber)، وجون بيار ريشار (Jean Pierre Richard)، وجورج بولي (Georges Poulet)، وغيرهم.

2. مفهوم الأدب اللاجئ

يستمدّ الأدب تسميته من الموضوع الذي يطرحه، ولعلّ أقرب مفهوم يمكن أن تقدمه إلى مصطلح "الأدب اللاجئ" هو الأدب الذي يصوّر حالة اللاجئين وينقل معاناتهم في أماكن اللجوء، أو هو الأدب الذي نبت في غير بيئته وكُنْب بأسلوب إبداعى واقعي يتعد عن الخيال، وللوقوف على هذا المعنى يجدر بنا التعرف على معنى "اللجوء" ونقول في اللغة: «لَجَأَ إِلَى شَيْءٍ وَالْمَكَانَ يَلْجَأُ لَجْأً وَلُجُوءاً وَلَمْجاً، وَلُجُوءٌ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ: أَسْتَدْتُ، وَفِي حَدِيثِ كَعْبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ دَخَلَ فِي دِيْوَانِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ تَلَجَّأَ مِنْهُمْ، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَبَةِ الْإِسْلَامِ، يُقَالُ: لَجَأْتُ إِلَى فُلَانٍ وَعَنْهُ، وَاللُّجُوءُ، وَتَلَجَّأْتُ إِذَا اسْتَدْتُ إِلَيْهِ وَاعْتَصَدْتُ بِهِ، أَوْ عَدَلْتُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، كَأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الْخُرُوجِ وَالْإِفْرَادِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ»¹، فاللفظة في اللغة بهذا المعنى تدل على الخروج من مكان إلى آخر، أو التخلي عن مكان الانتماء والدّهَاب أو الانتقال إلى مكان آخر أو فئة أخرى.

واللجوء في الاصطلاح هو حق من حقوق الإنسان أُكِّدَ عليه الشرائع السّاوية والمواثيق الدولية والإقليمية، والفرق بين الهجرة واللجوء؛ أنّه من هاجر مضطراً فهو لاجئ ومن هاجر راجياً فهو مهاجر، فالذين تعرّضوا للأذى والاضطهاد فإنّهم إن هاجروا سيصبحون لاجئين؛ لأنّ الأصل في حصول حالة اللجوء هو وجود انتهاكات لحقوق الإنسان وحرّياته، تدفع بالإنسان عند شعوره بالاضطهاد أن يترك بلده مضطراً².

فاللاجئ إذن هو «شخص هجر موطنه الأصلي أو أبعد عنه بوسائل التخويف والإرهاب أو الاضطهاد لأسباب سياسية أو عنصرية أو مذهبية، ولجأ إلى إقليم دولة أخرى طلباً للحماية أو العيش لحرمانه من العودة إلى وطنه الأصلي»³، نفهم من معنى اللجوء الوارد في المراجع أنّه يدل على الاضطراب لمغادرة الوطن الأصلي بسبب التعرض للظلم إلى وطن آخر بحثاً عن الأمن والحماية.

هذا بالنسبة لمصطلح اللجوء، أما إذا ربطنا اللفظة بالأدب أي "الأدب اللاجئ" فقد عُرِفَ بأنّه الأدب الذي يحاول «فهم سلوك الجماعات المهاجرة (...) هو أدب سياسي واجتماعي على نحو هادئ، فالقلب السياسي الاجتماعي يعيش ثورة داخل لاجئ تترك داخله ويعيش انقساماته الداخلي، وهو صاخر أحياناً في كشف شخصية الأغلبية اللاجئة المكتئبة والوحيدة والمنعزلة للغاية والبعيدة عن الحياة كل هذا البعد (...) وأدب اللجوء ينظر إلى اللاجئين بوصفهم فاعلين لا ضحايا بحسب»⁴.

فالأدب اللاجئ يتمثل عموماً في تلك النصوص التي كتبها أصحابها في بيئة غير بيئتهم وموطن غير موطنهم الأصلي؛ بمعنى أنّ الأدب اللاجئ أيضاً وبالتالي فهو يستمدّ مضامين نصوصه الأدبية من صميم واقعه المعاش، ويصوّره تصويراً واقعياً صادقاً ينقل فيه تفاصيل حياة اللاجئين لأنّه الأقرب إليهم وإلى معاناتهم، فآثرت هذه الأوضاع في الأديب بشكل مباشر فكتب عنها كتابةً إبداعية تصف وتصور وتنقل حياة الشعوب اللاجئة.

إنه أدب يشرّح واقع اللاجئين ولا يكتفي بالوصف والتصوير بل يغوص في عمق الواقع الاجتماعي لهؤلاء ويصوّر معاناتهم على جميع الأصعدة، لذلك نجد نصوص هذا الأدب ثرية بمختلف المضامين والنفسية والاجتماعية والسياسية، فهو يواكب حالة التشتت التي تصيب الشعوب ويقف مصوّراً ومعبّراً بأسلوب تغلب عليه المأساة وتسيطر عليه مشاعر الألم والحزن أوضاع الشعوب اللاجئة التازحة عن أوطانها باحثة عن الحماية والأمن، فهو بهذه المضامين يحمل قيماً إنسانية ونزعة وطنية وطابع المقاومة لأنه يعلن رفضه لكل أشكال الظلم والاضطهاد، فيقف موقف المتمرّد على كلّ ظالم تسبب في قهر الإنسان، وحاول مسخ هويته وسلب وطنه وقمع حريته.

3. التعرف بالكاتب

علي الكردي فلسطيني سوري من مواليد دمشق 1953، صحفي وكاتب؛ كتب في العديد من الصحف العربية مثل: الحياة، السفير، البيان الإماراتية، الصدى، دبي الثقافية، البيان الكويتية وصحف أخرى؛ - يكتب في مجال الصحافة الثقافية؛ محرر ثقافي في مجلة الهدف الفلسطينية ثم رئيس القسم الثقافي لعدة سنوات؛ مدير إداري لمركز الغد للدراسات ما بين 2003-2007؛ منذ 2007 عمل في إعداد الأفلام الوثائقية، بث معظمها على قناة الجزيرة؛ صدر له مجموعة قصصية بعنوان: موكب البط البري عام 1998 عن دار كنعان بدمشق، رواية قصر- شمعايا 2010، دار كنعان، ترجمت حديثاً إلى الألمانية؛ حرّر العديد من كتب الفكر السياسي الصادرة عن مركز الغد العربي للدراسات؛ معتقل سياسي سابق لمدة عشر سنوات؛ - مقيم حالياً في ألمانيا؛ ترجم له مشروع "فايتز شرايين" العديد من النصوص الأدبية القصيرة إلى الألمانية. أهمها الترجمة الألمانية لروايته قصر شمعايا، عن دار فالشتاين، ترجمة السيدة لاريسا بندر⁵.

4. ملخص الرواية

تجري أحداث رواية "قصر شمعايا" للروائي السوري علي الكردي، الصادرة عن "دار كنعان"، في كاتون قصر اليهودي شمعايا أفندي، والذي بُني سنة 1865، وقد تركه أصحابه إثر حرب سنة 1948، فتم تسجيله ضمن أملاك اليهود الغائبين. بعد هجرة أصحابه تحوّل القصر- إلى سكن للعائلات الفلسطينية التي هربت من فلسطين بعد النكبة. عائلات عديدة توزّعت غرف هذا القصر، لكل عائلة غرفة واحدة. لاحقاً راحت عائلات تتوسّع بضم مساحات من الفناء إلى غرفها. هكذا تحول القصر إلى مخيم أحداث ومظاهر جعلت القصر مخيماً مكتظاً بالبشر والمآسي معاً. الرواية التي تدور أحداثها بعيد نكبة 1948 في قصر شمعايا الدمشقي، تتخذ من هذا المكان ذريعة للحديث عن التنوّع الطائفي والديني في محيط القصر، أي في حارات دمشق القديمة حيث باب توما وباب شرقي. هنا أقلية يهودية لايزال بعض أبنائها يعيشون ويتناقصون يومياً، وأقلية شيعية مع أقلية سنية وأقلية مسيحية، إضافة إلى الفلسطينيين الذين وفدوا إلى دمشق معاً وتباعاً. هنا في هذه المساحة الصغيرة من دمشق يغدو الجميع أقليات. لا أكثريات في دمشق القديمة. الجميع يعيش كأقلية محكوماً بعاداته وتقاليده ومطلاً على عادات وتقاليده الأخر. الأقليات في محيط قصر- شمعايا تتعايش معاً لكنها في الوقت نفسه تنغلق على نفسها. لكن هذا التعايش وهذا الخليط لم يبلغ خصوصية كل أقلية ولم يُزل حدوداً أقامتها كل واحدة من هذه الأقليات لنفسها. هنا الخوف من الآخر والحذر منه. هنا الخجل من الآخر واحترام حدوده. هنا التلصص على الآخر والتشبه به. هنا مداراة الآخر وحفظ جبرته. هنا الصراع المستمر مع الآخر والوقوع في غرامه. هنا تداخل يقطعه انفصال، واتصال يعكره انغلاق. ذلك أن قصر- شمعايا الواقع في وسط دمشق القديمة والذي يأوي عائلات فلسطينية، ليس سوى رمز للعيش المنكفي من جهة وللإطالة على المحيط الشبيه أو المختلف من جهة أخرى. إذن، تدور أحداث رواية "قصر شمعايا" في سورية. مع ذلك يمكن القول إنّ السرد

قلماً يفارق هذه المنطقة الصغيرة من سورية. صوت الراوي الذي ما إن يخرج إلى أمكنة ومطاح وأحداث خارج سورية حتى يعود إلى هذا المكان الضيق. ثمة إحساس بأن الراوي ضيف في هذه الرواية. إنه الراوي الفلسطيني الذي يروي فلسطينيته معزولة عن البلد المضيف نظاماً وسياسة وأحداثاً كبرى (مطلع السبعينات).⁶

5. تيمات الأدب اللاجئ في رواية "قصر شمعايا"

تتنوع الموضوعات والمضامين داخل نصوص الأدب اللاجئ؛ لأنّ الأديب يعكس في نصّه كلّ الجوانب المحيطة بواقع الشعوب اللاجئة، فيعبر عن الجوانب النفسية والاجتماعية، وكذا السياسية وبيّن مدى تأثيرها على الأفراد، ورواية "قصر شمعايا" لا تخرج عن هذا الدور فهي تستدعي الواقع بكلّ تفاصيله الدقيقة وتصور تجربة الأفراد الذين عاشوا مأساة التهجير القسري وفقدان الوطن؛ إذ يسرد السارد وينقل لنا طريقة حشد عدّة عائلات فلسطينية لاجئة في "قصر شمعايا" الموجود في إحدى أحياء دمشق، وفي هذا الحثي يقطن مجموعات من اليهود والشيعة، أين حدثت معهم الكثير من الأحداث ومن خلال هذه الأحداث نستنبط الكثير من المضامين والقضايا والسمات التي ميّزت الرواية التي تندرج ضمن الأدب اللاجئ، وجدير بالذكر في هذا المقام أنّ الرواية واقعية إلى حدّ بعيد، حيث يوجد بالفعل مخيم للاجئين الفلسطينيين في دمشق، وسنحاول من خلال هذا الجزء التطبيقي استجلاء تيمات هذا الأدب من خلال هذه الرواية العميقة والثريّة من حيث الدلالات والقضايا.

أ. الاغتراب

لا شك أنّ الاغتراب يمثّل موضوعاً مركزياً في نصوص الأدب اللاجئ؛ لأنّها تتحدّث عن فئات مهمشة أبعدت ظلماً عن وطنها وبيئتها التي نشأت فيها، وتبنت ثقافتها ونمط معيشتها، وعاداتها وتقاليدها، وانتقلت إلى بيئة أخرى غريبة عنها ما يجعل الفرد يشعر فيها بالاختلاف والغربة واللا انتماء، ووجدت نفسها في الهامش بعد أن كانت في المركز، الأمر الذي يجعلها تشعر بالتشتت والضّياع.

وهذه المعاني التي نجدها في مفهوم الاغتراب الذي يدل على حالة اللا قدرة أو العجز التي يعانيها الإنسان؛ حيث يفقد القدرة على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الأحداث التاريخية بما فيها تلك التي تهمة وتُسهم بتحقيق ذاته وطموحاته⁷، وهو المعنى الذي تعكسه رواية "قصر شمعايا" التي تعدّ نموذج الأدب اللاجئ الذي تشمل سماته كلّ نصوص هذا الأدب.

ومن مظاهر الاغتراب المتجلية في الرواية نجد الاغتراب المكاني ويتجلى بوضوح في تهجير العديد من العائلات الفلسطينية من وطنهم فلسطين إلى دمشق ظلماً وقهراً دون أن يكون لهم أي رغبة في مغادرة وطنهم، فنجد الشخصية البطلة وهي "أحمد الشّيح طالب" تسرد هذا الوضع قائلة: «استفادت أسرتي مثل عشرات مئات العائلات اللاجئة من قرار الحكومة السورية في مطلع الخمسينيات من إسكان اللاجئين في بيوت اليهود السوريين الغائبين»⁸، يتجلى الاغتراب المكاني هنا بوضوح من خلال ابتعاد عائلة البطل عن مكان إقامتها وموطنها الأصلي إلى مكان آخر يختلف تماماً عن الموطن الذي نشأ فيه دينياً وثقافياً وجغرافياً، هذا الذي جعله يحسّ بالاختلاف الكبير بين المكانين ويشعر بالغربة فيه؛ إذ تمّ إسكانهم في قصر شخص ثري يدعى "شمعايا أفندي" الذي تركه لأبنائه وأحفاده لكنهم غادروه وتحول إلى ملجأ للفلسطينيين.

هذا الشعور بالاغتراب لازم البطل وسيطر عليه وهو يعيش حياته اليومية وينتقل في هذا المكان لكنه ظلّ غريباً عن المكان فكراً وروحاً يقول معبراً بألم عن هذا الشعور: «صرتُ أكتشف شيئاً فشيئاً أننا نختلف عن محيطنا بأشياء كثيرة: رنين لهجاتنا التي ورثناها عن آبائنا تختلف، ومدرستنا الابتدائية التابعة للأزواج تختلف عن المدارس الرسمية أو الخاصة لأبناء البلد، وأتينا وحدنا بوصفنا لاجئين نذهب في آخر الشهر إلى مركز توزيع الإغاشة لنحصل على معونات غذائية»⁹، يصور البطل حالة الانفصال عن المكان الذي يعيش فيه وأُجبر على الإقامة فيه دون أن تكون له رغبة في ذلك، فيتجلى المكان هنا مكاناً غريباً مغلقاً يصيب الشخصيات بالتفوق والملل والقلق، ويعيش صراعات داخلية جعلته يُصاب بعقدة النقص ويحس بالإقصاء والتهميش لأنّ اللاجئ في هذا المكان يُعاملون كالعبيد.

ولقد عبّر البطل في هذه الرواية عن ذلك قائلاً: «لماذا نحن وحدنا أبناء العائلات اللاجئة نحمل على رؤوسنا عجين الأرغفة (...) كنت ألاحظ نظرات الآخرين الخفية لي (...) التي تحمل الشفقة أو الدهشة وتشعري بالاختلاف»¹⁰، إنّ البطل يمثل كلّ اللاجئ ويعبر عنه فقد ظلّ حبيس تساؤلاته وصراعاته الداخلية التي لا تنتهي بسبب معاناتهم من نظرة الاحتقار والشفقة، ومن التمييز العنصري.

هذا الاغتراب المكاني أدى إلى شعور باغتراب نفسي واجتماعي الذي انعكس سلباً على شخصية البطل، فأصبح يعيش حالة انطواء وعزلة وهرب من هذا الواقع المأساوي فنجده في كلّ مرة يعبر عن حزنه وألمه وشعوره بالوحدة في هذا المكان الغريب، إنّ هذا الوصف يعكس حالة شعورية تعبّر عن شعور كلّ لاجئ وتصور آلامه وأحزانه التي أحس بها في بيئة غير بيئته، كما أنّ الشعور القوي بعدم الالتئام الذي سيطر على شخصيات الرواية، وتصور تفاعلها مع الخارج بقلق وخوف دائمين، هذا الذي عمّق حالة الشعور بالاغتراب والتألي من الطبيعي أن يكون الاغتراب من الموضوعات المركزية في هذه الرواية لأنها تسرد وقائع شعب مضطهد لا يملك القدرة على تغيير هذا الواقع المأساوي لأنّ الممارسات الظالمة والظروف القاسية أقوى منه.

ب. صراع الأنا والآخر

يطرح موضوع الأنا والآخر بقوة في نصوص الأدب اللاجئ وهذا طبيعي لأنها تصور تعايش مجموعة من الفئات باختلاف ثقافتها وديانتها في بيئة واحدة تمّ اللجوء إليها بفعل ممارسات ظالمة وظروف قاهرة، ورواية "قصر شمعيا" تطرح هذا الثنائية من خلال إبراز العلاقة بين اليهود والمسيحيين واللاجئين الفلسطينيين لكنها تبدو علاقة مضطربة لا سيما العلاقة بين اليهودي واللاجئ، فكيف يتعايشان وتكون علاقتهما مع بعض وهذا الآخر (اليهودي) هو الذي سعى بكلّ قوة لسلب حريته وهويته وأبعده عن وطنه؟ هذا التساؤل الذي جعل الشخصيات تعيش في حالة صراع وخوف دائمين من الآخر يقول البطل: «هل يشبه اليهودي هنا. اليهودي هناك؟ ما برح هذا السؤال يلح عليّ في طفولتي لفترة طويلة.. وكنت أشعر بقلق عميق أمام هذا اللفظ»¹¹، فالشخصية تحاول إثارة تساؤلات وعقد مقارنات بين اليهودي الذي أخرجه من وطنه ظلماً، واليهودي الذي يعيش معه في مكان اللاجئ، هذا الذي جعله يعيش حالة من التفوق والخوف من هذا الآخر الذي تسبب في مأساته، يقول: «تعلو أصوات تلاوة أسفار العهد القديم في لغة لا نفهمها، فيلغنا الخوف والغموض الذي يطرح على رؤوسنا الكثير من الأسئلة»¹²، والصراع هنا صراع داخلي غير واضح؛ إذ ظلت كل مخاوف اللاجئ من الآخر اليهودي بينهم وبين أنفسهم وفي الوقت نفسه صوّرت الرواية علاقة الاحترام المتبادلة بينهم. كما صوّر السارد صورة الأنا للاجئ ونظراته التونية إلى نفسه، ووصف إحساسه بالتمييز والفرق بينه وبين بقية الفئات، والأنا هنا لم تحصل على حياة كريمة كما يعيشها الآخر، وهذه الصورة المنسوبة إلى اللاجئ تشكلت بسبب

ظروفهم القاهرة وغربتهم الجغرافية والثقافية، وفي هذا المقام تعبر الشخصية البطلة قائلة: «أورثني الوضع المتداعي البائس الذي آل إليه قصر شمعايا بعد بضع سنوات على سكنا فيه، نوعاً من الحزن الدفين انعكس على سلوكي تحفظاً وتردداً، وانطواء على الذات، ربما لأنني شعرت بشكل مبكر بحسّي قبل أن أدرك بوعي حجم الهوية الواسعة التي تفصل بين أوضاعنا كلاجئين فقراء وبين الآخرين»¹³، إن هذه الصورة تجعل الأنا اللاجئة تظهر بمظهر الضعيف الذي لا يملك حقاً ولا لهويته أمام الآخر اليهودي أو المسيحي أو الشيعي.

وفي المقابل صوّرت الرواية في بعض المواضع قيم التعايش التسلمي بين اللاجئين وبقية الفئات، مثال ذلك تصويرها للآخر اليهودي بصورة الإنسان المسالم والعاقل والصديق، وتتجلى هذه الصورة في شخصية "موسى" الذي يقول عنه السارد: «بالمناسبة موسى شاب رائع جداً ومثقف»¹⁴، وهي صورة راقية رسمها السارد عن اليهودي ليدل بذلك على أنّ هذا الآخر يختلف، فحسب وجهة نظره أنّه لا يمكن تعميم الحكم على اليهود جميعهم اغتصبوا أرض فلسطين وطردوا أهلها، وقتلوا شعبها؛ بل منهم من يحمل قتيلاً إنسانية تمنعه من التعدي عن حقوق الآخرين؛ فهو هنا عمل على أنسنة اليهودي ومنحه صفات الإنسان المحب للخير وصديق الفلسطينيين.

من هنا نرى تعدّد أشكال الصراع بين الأنا والآخر في الرواية؛ حيث ظهر الآخر بالنسبة للأنا اللاجئ بصورة القوي والممارس لثقافته بكل حرية والمالك للأرض والحامل لهويته والمتحصل على جميع حقوقه التي تضمن له حياة كريمة، وظهر الأنا بصورة الضعيف الذي يحس بالنقص أمام هذا الآخر لأنّه محضوم الحقوق ويعيش بعيداً عن موطنه الأصلي ولا يملك خياراً وحرية لأنّه مقيد ويعيش في حالة مزريّة تمنعه من ممارسة حقوقه بكل حرية، وهذا ما يؤكد قول بطل الرواية: الإحساس بالغربة كانت تغذيه بشكل غير مباشر نظرة الآخرين لنا، التي يشوبها التعاطف مع شيء من الاستعلاء الخفي¹⁵.

إذن الرواية تسرد تفاصيل مأساة اللاجئين فتغوص في عمق شعورهم وأحاسيسهم وتنقلها بكل تفاصيلها، الأمر الذي جعلها تطرح قضية العلاقة بين الأنا والآخر وقيم التعايش بينها، فتصورها بأنها علاقة مضطربة تقوم على الشك والخوف والغموض؛ إذ يعيش الأنا اللاجئ في حالة حيرة وخوف دائمين من الآخر.

جـ. الهوية:

تعرّف الهوية بأنّها «مجموعة من الخصائص التاريخية واللغوية والنفسية التي تفصل بين جماعة وأخرى؛ الأمر الذي يجعلها تخرج من إطار الثبات، فهي نتاج حركة متعاقبة لجملة من الشروط التي تفرض على كلّ مرحلة مجموعة من التحولات التوعّية في المجتمعات البشرية، وتؤدي إلى حدوث نوع من عدم التوازن والاستقرار بين القديم الموروث والجديد الذي يسعى لتعيين وجوده»¹⁶، فهي التي يُعرف بها انتماء الإنسان.

والرواية تطرح قضية تعدّد الهويات؛ إذ تصوّر تعايش مجموعة من الفئات لها هويات مركبة بنسج فيسفاي معقّد حيث تعيش طوائف ومذاهب وديانات بطقوسها وثقافتها وممارساتها هذا التنوع في وسط واحد، وقد خلق هذا التنوع صراعاً بين الثقافات والانتماءات، ومع ذلك الرواية تصور مدى حفاظ كلّ فئة على هويتها وانتمائها الثقافي والديني والعربي؛ حيث إنّ هذا التعايش لا يلغي خصوصية كل فئة ما يعكس مدى تمسك هذه الفئات بثقافتها وهويتها.

وتتجلى بوضوح هوية كل فئة من خلال ممارستها الثقافية والحفاظ على لغتها ودينها وعاداتها وغط معيشتها وكذا تعلقها بأرضها ووطنها رغم البعد عنها، هذا البعد الذي زادهم تعلقاً بالأرض والوطن يقول السارد: «هذا الإحساس

العميق بالغربة، يعود بالتأكيد لإحساسنا بأننا مجموعة بشرية اقتلعت من أرضها بالقوة، وتعيش بشكل طارئ ومؤقت في تربة الآخرين»¹⁷، إن هذا الإبعاد هو محاولة لطمس الهوية ومسحها، الأمر الذي جعل اللاجئين يعيشون حالة تمزق ولا استقرار وتشقت بين الوطن الأصلي وبيئة الملجأ وبين ماضيهم وواقعهم الجديد، وبين لغتهم الأم ولغة الآخر، وبالتالي هنا تتحول الهوية إلى شيء غير ثابت؛ لأن المكان يؤدي دوراً محورياً في تشكيل الهوية وهنا اللاجئين فقدوا المكان، وبالتالي فقدوا جزءاً من الهوية.

في ظلّ هذا التشتت الذي سيطر على اللاجئين تحولت الهوية إلى اغتراب، إذ انقسمت الذات وخضعت إلى ظروف قاسية لا تملك قوة لتغييرها أو التغلب عليها فاستسلمت لها، ونتيجة لذلك أصبح اللاجئ يعيش صراعات داخلية بينة وبين ذاته، وصراعات خارجية بينه وبين الآخرين المختلفين عنه ثقافياً ودينياً واجتماعياً؛ إذ «ظلّ يشعر بينه وبين نفسه أنه نبتة غريبة بلا جذور، تنمو في تربة أخرى لا تنتمي إلى تقاليدها وتكوينها وثقافتها المختلفة»¹⁸.

ويتجلى هذا الصراع في حالة التوتر التي سيطرت على اللاجئ الذي ظلّ معلقاً بين هويته الأصلية التي ترتبط بالمكان، اللغة، الدين، والتقاليد، وبين الهوية الجديدة التي يفرض عليه التكيف معها في بلد اللجوء، لكن رغم ذلك حاولوا الحفاظ على خصوصيتهم واتمائمهم وتعلقهم بالوطن الأصلي وهذا ما يظهر بوضوح في حنينهم إلى الوطن وذكرائهم لأنها كانت تعني لهم التقاء والعلاقات الحميمة والبساطة والطهر الذي فقدوه مع الزمن كما قال السارد.

من خلال الرواية وشخصياتها وأحداثها يظهر موضوع الهوية كموضوع شائك غير محدد وواضح، إذ وجد اللاجئ نفسه أمام واقع معقد لا يملك حق السيطرة عليه أو ممارسة واجباتها والحصول على حقوقه بكل حرية هذا الواقع فرض عليه حياة مليئة بالصراعات وتمزق الذات، لأن الموضوع يطرح سؤالاً جوهرياً هو: هل يظل اللاجئ متمسكاً بهويته الأصلية أم يعيد تشكيلها حسب ما يفرضه الواقع الجديد؟

د. المأساة

يظهر موضوع المأساة في الرواية بشكل جلي من خلال وصف حالات القلق التي سيطرت على الشخصيات؛ وهو قلق يفترسه الطرف القاهر الذي تمرّ به بسبب لا استقرارهم وفقدانهم لأبسط وسائل الحياة الكريمة، وإحساسهم بالتمييز العنصري والفرق الشاسع بينهم وبين الآخرين، يقول البطل معبراً عن هذا الألم: «أورثني الوضع المتداعي البائس الذي آل إليه قصر شمعانيا بعد بضع سنوات على سكننا فيه، نوعاً من الحزن الدفين انعكس على سلوكي»¹⁹.

لقد أضحي وطن اللجوء فضاء مضطرباً وبؤرة للتوتر تعكس مأساة ومعاناة اللاجئين على جميع المستويات، وفقدانهم لوطنهم ليس بالأمر الهين لأنه فقدان للعيش الكريم وفقدان للاتمئة والاستقرار؛ هذا التصدع الذي أصاب الوطن أصاب نفسية اللاجئين أيضاً؛ إذ تحوّل المكان إلى مصدر معاناة وآلام يحمل دلالات الخوف والقلق والتهجير الاجتماعي والسياسي.

وليس غريباً أن تكون المأساة تيمة مركزية في نصوص الأدب اللاجئ؛ لأنه يصور الاقتلاع القسري حيث يُجبر الأفراد على مغادرة أوطانهم، فيعاني العزلة الاجتماعية وكلّ أنواع التمييز بسبب هذا الإبعاد، فالمأساة هنا هي صرخة رفض على الوضع المأساوي وشهادة حية على الظلم والتهجير الذي أصاب اللاجئين، وهو المعنى الذي عبّر عنه الروائي في نهاية الرواية وعلى صفحة الغلاف الخلفي قائلاً: «عبر مخزون موار بال معاناة والأسئلة، وقلق مستبد بأرواح أنهنكها المرات والحيات، تأتي الحكاية؛ حكاية بشر يمضون إلى مصائرهم من غير إرادتهم، محكومين بقوانين ليست من صنعهم، منذ طفولة فقد طفولتها ولم تفقد براءتها، فابتكرت لنفسها طفولة أخرى محكومة بخصوصية المكان بكل تلاوته

ليستفجر السؤال مبكراً في قلب الطفل حول الهوية، اللجوء، الانتفاء وغيرها، وكان لابد للطفل أن يكبر وتكبر معها الأسئلة عبر التحولات الصاخبة التي طالت كما طالت غيره من الاسر اللاجئة .. ربما هي حكاية معاناة، وربما يأس، وأيضاً ربما حكاية أمل»²⁰.

إنّ المسألة ظرف أجبر اللاجئين على معاشته وتحدي كل الأسباب والظروف المتسببة فيه، ليس ضعفاً منهم بل أملاً في استرجاع الوطن والأرض، وتفاؤلاً بمستقبل آمن تتحقق فيه الحرية وينتصر الحق.

خاتمة:

تعددت موضوعات الأدب اللاجئي في رواية "قصر شمعايا" للروائي السوري "علي الكردي" الذي سلط الضوء على فئة من اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، فصور معاناتهم وهم يكابدون أحزان بعدهم عن وطنهم، فطرح الرواية موضوع الانتفاء والهوية؛ هذه الهوية التي تحولت إلى شبكة معقدة وشائكة في ظل وضع غير مستقر وواقع متناقض فرض على اللاجئين التكلم بلغة غير لغتهم والعيش في أرض غير أرضهم، ومع ذلك نراهم يجاهدون من أجل الحفاظ على خصوصيتهم الثقافية والدينية، كما برز الصراع بين الأنا والآخر من خلال إبراز العلاقة المضطربة بين الذات اللاجئة والآخر صاحب موطن اللجوء والتظرة التونية ونظرة الاستعلاء التي يُنظر بها إلى اللاجئين، كلّ هذه الظروف جعلتهم يعيشون حالة اغتراب مكاني واجتماعي وانطواء على الذات.

إذن الرواية تشرح واقع اللاجئين الفلسطينيين وتطرح موضوعات مركزية لا يخلو منها أي نص يصور واقع المبعدين عن وطنهم قهراً وظلماً، هذا فضلاً عن أنها رواية واقعية إلى حد بعيد، ونرى أنّ هذا الأدب يحتاج إلى المزيد من الأبحاث التي تقف على مضامينه وآلياته وجالياته وتكشف واقع هذه الفئة التي تستحق حياة كريمة وتستحق الالتفات إليها.

6. قائمة الإحالات

¹ ابن منظور، لسان العرب، مادة (لجأ)، مج:1، دار صادر، بيروت، ص152.

² مظهر الشاكر، القانون الدولي للاجئين؛ دراسة قانونية تحليلية (قراءة في حق اللجوء)، بغداد، 2013، ص أ

³ أحمد عطية الله، القاموس السياسي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط3، 1968، ص1043.

⁴ محمد السلوم، أدب اللجوء السوري الشتات والتعبير الأدبي، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، قطر، 2018، ص04.

⁵ كتاب الشهر، قص شمعايا للكاتب علي الكردي، 13/07/ 2025/04/28

<https://www.youtube.com/watch?v=4e3xZadgpVw>

⁶ المرجع نفسه.

⁷ حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية؛ متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006،

ص37، 38

⁸ علي الكردي، قصر شمعايا، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 2010، ص8.

⁹ الرواية، ص8.

¹⁰ الرواية، ص09.

¹¹ الرواية، ص11.

¹² الرواية، ص10.

¹³ الرواية، ص23.

¹⁴-الرواية، ص40.

¹⁵-الرواية، ص69.

¹⁶- عهد كمال شلغين، الهوية العربية؛ صراع فكري وأزمة واقع (دراسة في الفكر العربي المعاصر)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2025، ص17.

¹⁷-الرواية، ص69.

¹⁸-الرواية، ص135.

¹⁹-الرواية، ص23.

²⁰-الرواية، الغلاف الخلفي.

7. قائمة المصادر

علي الكردي، قصر شمعايا، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 2010.

8. قائمة المراجع

1-أحمد عطية الله، القاموس السياسي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط3، 1968.

2-حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية؛ متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006.

3-عهد كمال شلغين، الهوية العربية؛ صراع فكري وأزمة واقع (دراسة في الفكر العربي المعاصر)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ت.

4-كتاب الشهر، قص شمعايا للكاتب علي الكردي، 13/07/ 2025/04/28

<https://www.youtube.com/watch?v=4e3xZadgpVw>

5- محمد السلوم، أدب اللجوء السوري الشتات والتعبير الأدبي، مركز حرمون للتراث المعاصرة، قطر، 2018.

6-مظهر الشاكر، القانون الدولي للاجئين؛ دراسة قانونية تحليلية (قراءة في حق اللجوء)، بغداد، 2013.

7-ابن منظور، لسان العرب، مادة (لجأ)، مج:1، دار صادر، بيروت.